وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب
منشورات الطفل

سلسلة أعلام للناشئة
العدد
«٢٧»

عمرو بن بحر الجاحظ

إبداعات في التصنيف والتأليف



د. طالب عمران

عمرو بن بحر الجاحظ

إبداعات في التصنيف والتأليف

صورة الغلاف
عبد الناصر الشعال

د. طالب عمران

عمرو بن بحر الجاحظ

إبداعات في التصنيف والتأليف

الهيئة العامة السورية للكتاب - منشورات الطفل
وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٤م

عمرو بن بحر الجاحظ: إبداعات في التصنيف والتـــأليف/ طالب عمران .- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٤م .- ٧٢ص؛ ٢٠ سم .

(سلسلة أعلام للناشئة؛ ٢٧)

١- ٩٢٨ : الجاحظ، عمرو بن بحر ع ٢- العنوان
٣- عمران ٤- السلسلة

مكتبة الأسد

سلسلة أعلام للناشئة

«٢٧»

-١-

صنّاع الحضارة العربيّة

ربَّما كان اهتمام العرب، إبَّان الحضارة العربية التي امتدَّت بين القرنين الثامن والسادس عشر الميلاديين، ربَّما كان اهتمامهم بالكتب وجمعها وتأليفها وتصنيفها هو الذي حفظ فعلاً تراث الحضارات السابقة.

فمنذ أن توسَّعت الدولة العربيّة، واختلط العرب بغيرهم من القوميّات، بدأت حركة الترجمة تنشط نشاطاً كبيراً، حتى بنى الخليفة العبّاسي هارون الرشيد داراً للترجمة، أصبح اسمها دار الحكمة. وقد توسّعت وازدهرت في عهد ابنه الخليفة المأمون.. وفي دار الحكمة، أو بيت الحكمة كما عُرف فيما بعد، غرف للناسخين والخطاطين والمترجمين والباحثين والدارسين. وكان المأمون يعطي (حُنين بن إسحق) وزن الكتاب الذي يترجمه ذهباً.. ويقال أن (حُنيناً)

كان يكتب ترجماته بخط كبير وعلى ورق سميك، حتى إنَّ قيّم بيت الحكمة اشتكى للمأمون من سمك الكتب التي ينقلها حُنين ومن تباعد السطور فيها.. وإنَّه يستغل قرار الخليفة بإعطاء وزن الكتاب ذهباً، فلا يقدِّم سوى الكتب السميكة قليلة الأسطر.. ولكن المأمون نبّه القيّم على بيت الحكمة إلى أن ما يترجم هو كنوز الحضارات السابقة، وأن تلك الكتب المترجمة أثمن من الذهب..

وبعد ترجمة الكتب والمؤلفات عن اليونانية والفارسية والهندية.. وغيرها من لغات الحضارات السابقة، بدأت عملية نسخ هذه الترجمات.. وتنافس الحكام والولاة والسلاطين في تجميع الكتب واقتنائها، وامتدَّت عدوى اقتناء الكتب إلى الناس..

ورغم أن الخليفة أنشأ مكتبات ودوراً للكتب، خصصت لعامة الناس ليقرؤوا فيها ويطّلعوا على الأبحاث والدراسات في مختلف فروع العلوم.. فإن نشاطاً ملحوظاً في تكوين المكتبات الخاصة بدأ يظهر في مختلف الأقاليم والمدن الإسلامية..

ونافس قصر أبناء موسى بن شاكر، بيت الحكمة في محتواه من الكتب المؤلفة والمترجمة، وفي إقبال العلماء على العمل فيه..

كانت الحركة العلمية هي السائدة في مختلف مناطق العالم الإسلامي، وفي عام ٨٩١ ميلادية وصل عدد دور الكتب العامة في بغداد إلى مئة دار..

وبالطبع كانت كل مدينة صغيرة أو كبيرة تسعى لتكوين مكتباتها العامة ليطّلع على كتبها ومخطوطاتها الناس من طلاب العلم والفقراء الذين لا يستطيعون اقتناء الكتب وشراءها..

في مكتبة النجف في العراق وصل عدد الكتب في القرن العاشر الميلادي إلى أربعين ألف مجلّد وكتاب.. وجمع نصير الدين الطوسي في مرصد مراغة[١] نحو أربعمئة ألف مخطوطة..

---

(١) مرصد مراغة: كان يُعدّ أكبر مرصد في العالم أسسه نصير الدين الطوسي في مدينة مراغة (في محافظة أذربيجان شرق إيران) عام ٦٥٧هـ الموافق ١٢٥٩م. أعلنت اليونسكو عام ٢٠٠٨ عام مرصد مراغة.

أما العزيز بالله الفاطمي[١] فحوت مكتبته ستمئة ألف مجلّد.. وربما كانت أضخم مكتبة في العالم الإسلامي، صنّفت ستة آلاف وخمسمئة مخطوطة في الرياضيات وثمانية عشر ألف مخطوطة في الفلسفة.

وبعد أن اعتلى العرش ابنه الحاكم بنى مكتبة ضخمة فيها ثماني عشرة قاعة للمطالعة إلى جانب المكتبة التي بناها والده..

وكثرت الكتب وكثرت المكتبات وكثر المتعلّمون، وامتدَّت الثقافة شرقاً وغرباً في حركة وعي نشرت فيها القيم والفهم وروح المعرفة الحقيقية.

تؤكد زيغريد هونكه، المستشرقة الألمانية المعروفة، أنه قبل ستمئة عام كان لكليّة الطب الباريسيّة أصغر مكتبة في العالم، حيث لم تكن تحتوي هذه المكتبة إلاّ على مؤلَّف واحد هو: الحاوي في الطب لأبي بكر الرازي..

---

(١) العزيز بالله: خامس الخلفاء الفاطميين تولى الخلافة عام ٩٧٥م وهو الذي حوّل الجامع الأزهر إلى جامعة.

لقد دفع لويس الحادي عشر[1] مبلغ اثني عشر ماركاً[2] من الفضّة ومئة وعشرة تالر[3] من الذهب الخالص لقاء استعارة هذا الكتاب، رغبة منه أن ينسخ له أطباؤه نسخة يرجعون إليها إذا ما هدّد مرض أو داء صحته وصحة عائلته..

لقد كانت دراسة الأدوية هي حجر الأساس لدى كل مهتم بالطبّ والعلاج والمداواة، فلا نجد مؤلفاً من مؤلفات كبار الأطباء العرب إلا وأفرد فيه للأدوية المفردة والمركّبة قسم خاص بها.. مثل ما كان عند ابن سينا عندما خصّص للأدوية المفردة والمركبة الكتاب الثاني والكتاب الخامس في مؤلفه (القانون في الطب) – وهو من خمسة كتب. وما خصَّص الرازي من الجزأين العشرين والحادي والعشرين

---

(١) لويس الحادي عشر: ملك فرنسا – حكم فرنسا من عام ١٤٦١م إلى عام ١٤٨٣م وكان يلقب بالملك العاقل أو الحكيم.

(٢) المارك: عملة ألمانية كانت تستخدم قبل العملة الأوربية الموحدة (اليورو).

(٣) تالر: عملة فضية أو ذهبيّة كانت تستخدم في النمسا وفي بعض أنحاء أوربا ألغيت عام ١٩٤٦م

من كتابه (الحاوي).. وما للأمر ذاته أفرد ابن الطبري من قسم للأدوية في كتابه فردوس الحكمة. وكذلك ابن زهر في كتابه (التيسير في المداواة والتدبير)..

وأفردت كتب كاملة للأدوية عند ابن البيطار والغافقي والإدريسي، فهناك: - الجامع للأدوية والأغذية - لابن البيطار، و(الأدوية المفردة) للغافقي، و- الجامع لصفات أشتات النبات للإدريسي، وغير ذلك..

* * *

ماذا عن الرازي وكتابه (الحاوي في الطبّ)؟

إن محمد بن زكريا الرازي هو أعظم الأطباء على الإطلاق في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، كان إنساني النزعة يشفق على معاناة مرض الفقراء، ويساعدهم في كل محنهم.. يطعم الجائع ويداوي المحتاج بلا مقابل.. كان يفضل العلاج بالأعشاب، وكتب كتباً في ذلك مثل - كتاب القولنج -.. ووضع النصائح في كتب الطبخ.. ووصف إعداد الباذنجان والبصل والخيار.. والمربيات.. كان يهتم بأثر

عوامل الجو على الإنسان، وعلى إصابته بالمرض، وينصح بدخول الهواء النقي والشمس إلى البيوت، كما نصح بالرياضة والاغتسال والنظافة الدائمة..

يقع كتاب - الحاوي في الطب - للرازي في ثلاثين جزءاً، وربما كانت محتوياته هي محتويات موسوعة في الطب جمعت كل المعارف التي توصَّل إليها العقل البشري في الطب حتى تاريخه.. لقد اطلع الرازي على معارف الأمم السابقة في الطب، وأضاف إليها الكثير، وكان حرَّ التفكير، دقيق الملاحظة، شرح في الحاوي وجهات نظره في الأمراض وتجاربه العلاجية.. وبطلب من الوزير (أبي القاسم بن عبد الله)(١) كتب الرازي كتاباً سماه - برء الساعة - ناقش فيه مختلف الأمراض.. وكان سبب تأليف هذا الكتاب أن جمعاً من الأطباء قد زعموا في حضرة الوزير

---

(١) أبو القاسم بن عبد الله: أحد وزراء المعتضد الخليفة العباسي.. كان ذا علاقة مع العلماء في عصره وقد قرّب الرازي بعد بناء المستشفى العضدي في بغداد لأنه حدد مكان المستشفى.. مكاناً أكثر نقاءً في الجوّ في ضواحي بغداد..

أبي القاسم في إحدى المرات أن علاج الأمراض يحتاج لوقت طويل ولكن الرازي خالفهم في ذلك..

فقد أكد أن الكثير من الأمراض يمكن أن تعالج في ساعة واحدة، وأن ادعاء الأطباء أن تلك الأمراض يحتاج علاجها لوقت طويل سببه الجشع واستنزاف أموال المرضى..

عند ذلك طلب الوزير منه أن يكتب كتاباً بهذا المعنى فكان كتاب- برء الساعة - لقد كان الرازي يجرِّب عقاقيره التي يصنعها لمقاومة الأمراض على الحيوانات، ومن ذلك يستخلص النتائج ويطبقها على البشر..

-٢-

الجاحظ وعلماء التصنيف الحيواني

لاشك أن إسهامات العلماء العرب المسلمين، في موضوع التصنيف الحيواني، هي إسهامات كبيرة تركت أثراً كبيراً في التراث العلمي العالمي..

ويؤكد الدكتور محمد مروان السبع في كتابه (شذرات مضيئة في علم الحياة الحيوانية في تراث العرب) أن العلماء العرب المسلمين قد تفوقوا في موضوع التصنيف الحيواني على كل العلماء الآخرين في الحضارات السابقة.. وأثّر تصنيفهم بشكل مباشر على التصنيف الحيواني الذي اعتمده الغرب فيما بعد..

لقد كتب كثير من العلماء العرب المسلمين في موضوعات علم الحيوان وخصائصه وتفصيلاته، وذكروا أعداداً هائلة من الأنواع الحيوانية التي كانت تعرف أيام زمانهم.

وقسّم إخوان الصفا[١] أجناس الحيوانات إلى أربعة أقسام: سكان الهواء مثل الطيور والحشرات - سكان الماء كالسمك والسرطان والضفادع والصدف - سكان البرّ وهي الأنعام والبهائم والسباع - سكان التراب وهي الهوام –..

ورغم أن علماء الغرب قد نسبوا علم المشاركة والتكافل بين الأحياء للفيلسوف الألماني (غوته) لأنه تعرّض في كتابه (فاوست) لعلم التكافل بين نوعين مختلفين من الحيوان، فإن هذا العلم يعود أصلاً للعالم الكبير محمد بن عيسى الملقب بالدميري نسبة إلى (دميرة) بمصر، والذي يعتبر من أعظم مؤرخي علم النبات والحيوان..

---

(١) إخوان الصفا وخلان الوفا هم جماعة من الفلاسفة المسلمين العرب في البصرة من القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي، حاولوا أن يوفقوا بين العقائد الإسلامية والحقائق الفلسفية المعروفة في تلك الأيام. وقد كانت اهتماماتهم متنوعة وامتدت من العلم بالرياضيات إلى الفلك والسياسة. وقاموا بكتابة فلسفتهم عن طريق ٥٢ رسالة مشهورة، منها رسائل تعليمية رياضية في العدد والهندسة وعلم النجوم والجغرافيا والموسيقا والنسبية والأخلاق والحركة والسماء والعالم والكون والفساد والآثار العلوية والمعادن والطبيعة والنبات والحيوان والجسد ومختلف المعارف ومبادئ الموجودات العقلية والفلسفة والعقل والأدوار والعشق... الخ.

والدميري عاش في القرن الثامن الهجري الموافق للقرن الرابع عشر الميلادي.. وعند كلامه عن الضبّ مثلاً يقول: إن بين الضبّ والعقارب مودة وألفة يؤويها في حجره لتلسع المتّحرش به إذا أدخل يده لأخذه..

ويتابع فيقول: لايمكننا بالضبط تحديد العلاقة بين العقرب والضبّ، على أن من الثابت حقاً أن العقارب تختفي في جحور الضباب..

أما الجاحظ فكان يعيش الأمور بمقياس العقل فقد ردّ عدداً كبيراً من آراء أرسطو، أو الأراء المنسوبة إلى أرسطو كالقول بوجود حيّة برأسين.. والقول بحجر تحت عرش ملوك اليونان يشفي من لدغة العقرب..

والجاحظ لم يقبل بالأوهام والخرافات والشعوذة التي لايسندها الدليل القاطع.. والتي قبلها الكثيرون ممن عاصروه.. بل كان يهزأ بمن يقبلها على علاّتها.. وكان بحثه يعتمد على أسلوب التجريب العلمي والشك الذي يقود إلى المعرفة الحقّة..

فكان، وهو يعدُّ كتابه (الحيوان)، يدقق الملاحظة حتى يصل إلى الحقائق الثابتة.. وقد تحقق من نظرياته العلميّة عن طريق التجربة والخبرة.. وقد ادّعى علماء الغرب – كما

يؤكد الدكتور مروان السبع - أنهم اكتشفوا أن التنفس يكون من المسام في الجلد أيضاً وعدم قصر عمليّة التنفس على الرئتين فقط..

ولكن الجاحظ كان قد أكّد هذه المعلومة قبل قرون من هذا الادعاء فيقول: «لولا أن تحت كل شعرة وزغبة مجرى تنفس لكان المخنوق يموت مع أول حالات الخنق، ولكن النفس كان لها اتصال مع النسيم مع تلك المجاري على قدر من الأقدار فكان نقطها جوف الإنسان، فالريح أو البخار لما طلب المنفذ لم يجده، دار وكثّف وقوّى، فاستدلّه الجلد فسدّ له المجاري، فعند ذلك ينقطع النفس ولولا اعتصامها بهذا السبب لكانت انقطعت إلى أصلها مع أول حالات الخنق»

أما أبو علي أحمد بن محمد يعقوب بن مسكويه والذي عرف أحياناً باسم الخازن.. لأنه كان أميناً لمكتبة عقيد الدولة البويهي، فقد تحدّث عن علم الأحياء في أماكن متفرقة من مؤلفاته المتعدِّدة..

فقد تحدّث عن الحيوانات الدنيا التي لم تستوف الصفات الحيوانية الكاملة.. والتي في صفاتها تشابه

الحياة النباتية، كالسوطيّات التي تشبه الحيوانات في قدرتها على الحركة، وتشارك النبات في قدرتها على التمثيل اليخضوري..

حكى ابن مسكويه عن مميزات النبات عامة، وحكى عن الأصداف والحلزون كأمثلة على الحيوانات الدنيا التي ليس لها سوى حسّ واحد هو اللمس..

كما حكى عن الخلد باعتباره غير مستكمل للحواس الخمس، كما تحدّث عن الحيوانات التي استكملت حواسها الخمس التي لها رتب متفاوته، منها البليدة الجافة الحواس، ومنها الذكية اللطيفة التي تستجيب للتهذيب كالفرس والبازي والببغاء..

* * *

-٣-

طفل دقيق الملاحظة

لعلّ أحد أهم من عمل في تصنيف الحيوان وترك إبداعاً متفوقاً فيه كما ذكرنا هو الجاحظ.. عمرو بن بحر بن محبوب الذي ولد عام ١٦٣ للهجرة الموافق لـــ ٧٨٠ للميلاد.. كان عالماً وأديباً موسوعياً(١)، دقيقاً في ملاحظاته، يعتمد على التجريب واكتساب الخبرة في أبحاثه ودراساته..

---

(١) عمرو بن بحر بن محبوب الكناني أبو عثمان، الشهير بالجاحظ: كبير أئمة الأدب، له تصانيف كثيرة، منها:

«الحيوان» أربعة مجلدات، و«البيان والتبيين» و«سحر البيان» و«التاج» ويسمى أخلاق الملوك، و«البخلاء» و«المحاسن والأضداد» و«التبصر بالتجارة» وهي رسالة نشرت في مجلة المجمع العلمي العربي، و«مجموعة رسائل» اشتملت على أربع، هي: المعاد والمعاش، وكتمان السر وحفظ اللسان، والجد والهزل، والحسد والعداوة. وله «ذم القواد» رسالة صغيرة، و«تنبيه الملوك» في ٤٤٠ ورقة، و«الدلائل والاعتبار=

يكنّى الجاحظ بأبي عثمان ويلقَّب بالجاحظ لجحوظ عينيه.. ولد في البصرة وكان مشوَّه الخلقة، ورغم ذلك تأقلم مع وضعه وأصبح من كبار الأدباء والعلماء في ذلك العصر.. بدأ الجاحظ حياته في حي (كنانة) الفقير في البصرة..

كان والده يعمل حمّالاً عند (عمرو بن قلع) وكان (عمرو) طيباً لطيفاً معه وهذا مادعاه إلى تسمية ابنه بـــ عمرو على اسم سيّده.. كان كثير الحركة، كثير التجوال منذ طفولته، وكانت أمه تسأله دائماً الأسئلة نفسها ويجيب عنها:

- عمرو.. ياعمرو، أين أنت؟

= على الخلق والتدبير» و«العرافة والفراسة» و«الربيع والخريف» ورسالة «الحنين إلى الأوطان». و«النبي والمتنبي» و«مسائل القرآن» و«العبر والاعتبار في النظر في معرفة الصانع وإبطال مقالة أهل الطبائع» و«فضيلة المعتزلة» و«صياغة الكلام» و«الأصنام» و«كتاب المعلمين» و«الجواري» و«النساء» و«البلدان» و«جمهرة الملوك» و«الفرق في اللغة» في تذكرة النوادر، و«البرصان والعرجان والعميان والحولان» و«القول في البغال» و«كتاب المغنين» و«الاستبداد والمشاورة في الحرب». ولأبي حيان التوحيدي كتاب في أخباره سماه «تقريظ الجاحظ» اطلع عليه ياقوت الحموي.

- أنا ذاهب إلى النهر، أريد أن أراقب عمل الناس هناك..

- لماذا هذا الفضول يابني؟ مالك وللناس..

وكان يقول في نفسه : «لو قلت لها أني ذاهب لأراقب الحيوانات في البستان لصبّت جام غضبها عليَّ، ولكن لابأس بهذه الكذبة»..

- عد يابني، ساعدني في عملي أنا متعبة..

- لن أبتعد كثيراً، سأعود سريعاً..

وكانت تردِّد دائماً: «يالهذا الصبي! يضيّع وقته في التأمل والتفكير، رغم أنه مازال صغيراً على ذلك»

كان مرّة يراقب مجموعة من الطيور الملونة تطير بجماعات من حوله، تلتقط الفتات والحَبَّ، وقفزت أمامه ضفدعة خضراء كبيرة الحجم.. وعلى جذع شجرة قريب رأى عنكبوتاً ينسج شباكه.. عرف أن العالم من حوله هو عالم عجيب متنوّع.. سمع صوت نباح كلاب تطارد رجلاً.. كان يتجه صوب المكان الذي يقف فيه الصبي غارقاً في تأملاته:

- أيها الصبي.. ابتعد عن طريق الكلاب إنها ضالة ومسعورة..

ردَّد الصبي: «لابدَّ وأنها تطارده لأنه فعل شيئاً لها، أما أنا فسأبقى مكاني ولن أخاف منها»

ثم سأل الرجل :

- ماذا فعلت لها ياعم ؟

- لم أفعل شيئاً، إنها حيوانات متوحشة.. ابتعد أيها الصبي، قد تهاجمك الكلاب

- لاتخف سأدبر أمري..

كانت كلاباً عديدة، شرسة توقفت قربه وهي تنبح :

- ماذا تريدين مني أيتها الكلاب؟ لست أخافك..

وفجأة أخذت الكلاب تهدّئ من نباحها.. أحدها اتجه صوبه وهو يعوي ذليلاً.. فربَّت الصبي على رقبته.. دون خوف

- لماذا تطارد ورفاقك ذلك الرجل المسكين.؟.

كان يلوح بذيله ويلحس يده بلسانه.. وأحاطت به الكلاب الأخرى.. لم يكن يملك طعاماً لإطعامها فتركته واتجهت صوب الرجل من جديد :- «ترى ماذا فعل الرجل حتى استمرت الكلاب في ملاحقته؟»

وعاد متأخراً إلى أمه :

- لماذا تأخرت ياعمرو؟

- كنت أتجول قرب النهر.. هاجمت مجموعة من الكلاب رجلاً، ولكنها لم تهاجمني، بل اقترب أحدها ولحس يدي..

- يبدو أنك لم تخف.. الكلاب تحترم الجريء الشجاع.. وتهاجم الجبناء الذين يخافونها.. هيّا اغسل يديك وتناول طعامك..

- أماه لماذا نحن فقراء هكذا ؟

- يابني الفقر ليس عيباً، نحن نكافح في سبيل الحياة، وحين تكبر ستصبح رجلاً ثريّاً، أنت صبي شديد الذكاء..

- وقبحي ودمامتي؟ إن الذكاء لايفيد أمامهما..

- لاتقل هذا.. منذ الغد ستذهب إلى مجلس العلماء في مسجد البصرة، لتتعلم وتحفظ القرآن..

- إنه خبر مفرح يا أمّاه.. أحقّا ماتقولين. ؟.

- ولكن انتبه ياعمرو، ستذهب إلى المسجد وتحاول أن تتعلم، ولكن إن احتجتك في أيَّة مرّة فستأتي إليّ وتلبي طلباتي.. قد أحتاجك ياعمرو..

- كما تشائين ياأمّاه.. وإن كنت أظن أنك لن تجعليني أهنأ في الانضمام لأحد مجالس العلماء في مسجد البصرة..

وفعلاً كانت الأم الفقيرة كثيراً ماتوقظه باكراً، وتعطله عن الالتحاق بالمجالس :

- خير؟ ماذا تريدين ياأماه ؟..

- ستخرج معي اليوم لنبيع معاً بعض الأسماك والحلوى، سيجلس كلانا في مكان بعيد عن الآخر، نلتقط رزقنا... الحالة صعبة ياولدي..

- لن أذهب إلى المسجد إذاً هذا اليوم؟

- يجب أن تعمل معي في بيع السمك والحلوى، أنا متعبة لا مال عندنا يسدً الرمق..

- كما تشائين.. دعينا نعقد اتفاقاً ياأمي..

- اتفاق؟ بيننا أنا وأنت؟ إنه أمر مضحك..

- سأذهب معك في الصباح أساعدك في البيع، وبعد الظهر أذهب إلى المسجد لأحفظ القرآن وأتعلّم..

- حسبك حفظ القرآن ياعمرو، العلم طريقه صعب ومليء بالأشواك..

- لا يا أمي.. العلم يحتاج لذكاء ومتابعة، وقد نويت أن أتعلم ولو كلفني ذلك الكثير من عمري..

- تبدو طموحاً أكثر من اللازم.. هيّا جهّز الأطباق، سنذهب لنلتقط رزقنا..

- أوه.. دوماً تعاندينني وتثبطين عزمي.. سيأتي يوم تعرفين فيه ما أملك من قدرات..

- هيّا ياعمرو، الكلام لايدرٌّ رزقاً للفقراء..

- آه ياأمي.. الكلام لايدرٌّ مالاً؟ كيف؟ الشعراء في بغداد ينالون الكثير من عطايا الخلفاء.. ويعيشون حياة مرفهة..

وفي ذهابه إلى السوق كان ينادي على بضاعته ويطري محاسنها وسرعان ما يبيعها..

- أنهيت ما أعطيتني ياأمي من مواد للبيع، وهذا هو ثمنها..

- هات.. سأجهز لك طعاماً..

- سأذهب إلى المسجد بعد الظهر.. يجب أن أبكّر في الذهاب..

- طيّب، لن أمنعك من الذهاب، وإن كنت لا أعلم لماذا الإصرار على التعلم وليس لك في صنعة الأدب والعلم شيئاً..

- ومن قال لك ذلك ؟.. سترينني إن شاء الله عالماً تفخرين به..

- إن شاء الله.. وإن كنت أستبعد ذلك..

وكان كثيراً ماتدور بينه وبين شيوخ المجالس حوارات ساخنة، وفي أحد الأيام :

- ياشيخنا.. الحيوانات كائنات لها حسٌّ وإدراك، ويجب أن نتعامل معها كذلك..

- ياعمرو.. لم أنفِ أن الكائنات لها حسٌّ وإدراك، ولكنها عجماء وغبيّة لاتستطيع الارتقاء بإدراكها..

- أنا معك ياشيخنا بالنسبة لبعض الحيوانات، ولكن هناك أنواعاً تستطيع أن تنظم نفسها جيداً.. انظر إلى النحل،

إلى النمل، انظر إلى العناكب والقردة، والغربان، والحشرات المفيدة كدودة القزّ مثلاً..

- تبدو مطّلعاً على عالم الحيوانات ياعمرو!

- إنه عالم عجيب ياسيدي، أحاول الاستزادة من الاطلاع عليه.. كل مافيه يوحي بقدرة الله عز وجلّ.. في تنظيمه لهذا العالم وفروعه وأقسامه..

- لا تتوقف عن طلب العلم، سيكون لك شأن في يوم من الأيام..

- شكراً لك ياسيدي..

- أنت من هذه المدينة ؟

- نعم ياسيدي، ولدت وترعرعت هنا.. لماذا تسأل ؟

- أريد أن نتعارف، تبدو صبيّاً متفوقاً ياولدي..

- شكراً لك..

- سرّتني معرفتك ياعمرو، مارأيك لو تذهب معي إلى البيت، سأطلعك على مكتبتي.

- بكل سرور ياسيدي، شكراً لك..

وفي منزل الرجل الكهل:

- أحضر الطعام ياغلام..

أكد الصبي:

- ولكني أكلت ياسيدي، لا أريد طعاماً..

- تناول ماتستطيع منه، لن أجبرك..

- لابأس..

كانت مائدة عامرة..

- تفضّل ياعمرو..

- لابأس ببضع لقيمات..

وأطلعه الرجل على مكتبته، فأبدى الصبيُّ إعجابه :

- إنها مكتبة فخمة ياسيدي مليئة بالكتب والمخطوطات..

- تستطيع أن تستعير منها ماشئت، وهي تفتح أبوابها لك في أي وقت..

- هذا كتاب لأرسطو طاليس..

- عندي منه نسختان، سأهديك واحدة..

- إنه عمل عظيم..

- هل تؤمّن ووالدتك حاجتكما إلى المال ؟

- الحمد لله..

- إن احتجت شيئاً، لن أبخل عليك.. بيت موسى بن عمران سيظل مفتوحاً لك ياعمرو.

وخرج عمرو من بيت موسى بن عمران وهو يشعر بالسعادة كمن عثر على كنز فاستقبلته أمه بالتقريع :

- أين كنت أيها الشقي؟ لماذا تأخرت عليّ؟ أليس هذا اليوم هو يوم عطلة نبيع فيه من الصباح إلى المساء؟

- آسف ياأماه.. لم انتبه للوقت..

- تحمل بيدك كتاباً؟ إنه سبب شرودك وضياعك..

- لابأس يا أمي.. سأفعل ما تريدين..

-٤-

الصبيُّ الباحث

- اسمع ياعمرو، ستلحق بي بعد قليل بطبق الحلوى، يجب أن ننهي بيعها اليوم وإلا فسدت وألقيت في القمامة..

قال شارداً:

- طيّب، طيّب لاتقلقي..

كان يحدِّث نفسه :

- سأقرأ رأي أرسطو في التصنيف الحيواني.. سأذهب إلى المسجد بعد قليل لأناقش هذه المسألة مع بعض المعلمين..

ولحظت الأم بعد فترة من تركه وحيداً مع طبق الحلوى في البيت أنه لم يأتِ إلى ساحة البيع فذهبت تستفقده:

- ياإلهي أين ذلك الصبي المهمل؟ لايزال الطبق على حاله.. إنه يتعفَّن ويجب أن نرميه بين أكوام القمامة، كيف نسي هذا الوغد الطبق؟

كان قد ذهب إلى المسجد كعادته، وعاد متأخراً..

- عدت أخيراً؟

- لماذا هذه اللهجة ياأماه؟ ماذا جرى؟

- كيف نسيت طبق الحلوى ولم تلحقني به؟ انتظر الناس الحلوى في السوق..

- سهوت لبعض الوقت عنه فنسيته.. كنت أقرأ وأدوّن بعض الملاحظات..

- هكذا؟ تدوّن بعض الملاحظات، معقول ياعمرو؟!

- هذا ماجرى، اعذريني ياأماه..

وكظمت الأم غيظها من الصبي وهي تراه يلهو بالكتب عن مساعدتها.. وفي أحد الأيام عاد متأخراً من المسجد، وكان متعباً جائعاً..

- أماه، أنا تعب وجائع.. أرجوك جهّزي لي بعض الطعام..

- منذ زمن وأنت تتهرَّب من العمل معي.. وتفضّل الكتب والمخطوطات على بيع السمك والحلوى..

- أريد أن أصبح عالماً ياأماه، وهذا يحتاج للدرس والمتابعة..

- ألم أقل لك أن هذا الهدف بعيد المنال بالنسبة لفقير مثلك؟

- التعلم لايفرِّق بين الغني والفقير.. وأنا واثق من قدراتي..

- مازلت مصراً إذاً على عدم مساعدتي؟

- عندما أصبح عالماً سأعوّض لك كل هذا التعب واللهاث وراء لقمة العيش..

- هذا يحتاج لوقت كبير وأنا امرأة ضعيفة، مريضة..

- سأحاول أن أصل إلى هدفي بأسرع ما أستطيع، أرجوك ياأماه، جهزي لي بعض الطعام.

نظرت إليه بقلق: - «يجب أن أهزّه من الأعماق، وأجعله يعود إلى وعيه»

- سآكل بعض الطعام، وأنسخ هذه المخطوطة..

- تفضل ياعمرو.. هذا هو طعامك..

- ماهذا؟ لاأرى أمامي سوى الكتب والمخطوطات في الطبق..

- إنه طعامك المفضّل، تناوله هنيئاً مريئاً..

- أتسخرين مني؟

خرج غاضباً من المنزل وهي تردد في نفسها: - «يجب أن يعود إلى وعيه»

خرج عمرو إلى الخلاء جائعاً غاضباً :

- «ها أنذا مع الليل وحشراته وحيواناته الصغيرة.. ومعدتي يقرصها الجوع.. ماذا أفعل؟ يبدو أن أمي مصرّة أن أصبح بائعاً للسمك والحلوى.. ولكني لا أستطيع فعلاً.. العلم والأدب في دمي.. ماذا أفعل

يارب؟ سأقصد موسى صديقي قد يحسن في إعطائي النصح؟»

واستقبله موسى بحرارة وضحك حين روى له ماجرى:

- إذاً قدَّمت لك والدتك الكتب والمخطوطات، لتأكل منها؟!.

- تصوّر.. وأنا أكاد أسقط من الجوع..

وصفَّق موسى منادياً خادمه:

- اسمع ياعباس جهّز لضيفنا الصغير عشاء شهياً..

- في الحال ياسيدي..

- يجب أن تأكل أولاً، وبعد ذلك نتبادل الحديث..

وبعد أن انتهى من الطعام قال له موسى :

- اسمع ياعمرو، أنت صبي مجتهد، وسريع البديهة ولماح الذكاء.. سأضمن لك راتباً شهرياً تعيش فيه مع والدتك، خمسين ديناراً، تقبضها مطلع كل شهر، فقط أريد منك أن لاتتوقف عن التحصيل والمتابعة، ستغدو عالماً كبيراً.

قال مدهوشاً :

- ماذا؟ خمسون ديناراً؟ وماذا سأفعل مقابل هذا المبلغ الضخم ؟

- كما قلت لك، فقط أريد منك أن تتابع الدراسة والتحصيل..

وترك (عمرو) صديقه موسى، وقد حمل خمسين ديناراً راتب الشهر الأول، والدنيا لاتسعه من الفرح.. وذهب إلى والدته التي كانت تتلظى من القلق والخوف عليه، والندم على الأسلوب الذي تعاملت به مع عمرو.. وحين دخل إليها فرحاً.. لم تتمالك نفسها من ضمه وتقبيله وهي تبكي..

- لابأس ياأمــاه، تريدين مالاً، هاك خمسين ديناراً، راتبي الأول عن الدراسة والتحصيل..

- ماهذا؟ معقول؟

وحكى عمرو لأمه ماكان بينه وبين صديقه.. ومنذ ذلك اليوم كفَّت أمه عن مطالبته بالعمل معها.. وخففت من ذهابها إلى سوق السمك وبيع السمك والحلوى..

للجاحظ تصانيف كثيرة، منها كتاب (الحيوان) الذي يتألف من أربعة مجلّدات..

يبحث كتاب الحيوان في غرائز وخصائص الحيوانات وكيفية التعامل معها، وكيف تعامل بعضها البعض. وهو موسوعة علمية شاملة غزيرة المعلومات..

يستعرض الجاحظ أنواع الحيوانات وخصائصها وسلوكها.. وقد أورد معلوماته من واقع الخبرة والتجربة والمشاهدة، مع تحليل علمي..

ويؤكد الدكتور مروان السبع في كتابه (علم الحياة الحيوانية) أن الجاحظ هو المؤسس الأول لعلم الغرائز وليس بافلوف الروسي..

-٥-

البحث في أسرار الصحراء

في الخامسة عشرة من عمره نصحه (أبو جعفر العنبري) الذي يروي الأشعار في المربد[(١)]، أن يسافر إلى الصحراء ويتسقّط الأخبار والطرائف والأمثال، ويتعلم اللغة العربية بأصولها..

ورغم أن الناس في رحلته قد نفروا منه لتشوّه خلقته، فإنه بشخصيته المرحة قد لفت انتباههم والتفّوا حوله ينصتون لحكاياته ونوادره التي كان يبتكرها بذكاء..

---

(١) المربد: أو مربد البصرة.... منذ الجاهلية -حتى بداية عصر الخلفاء كان سوقاً للإبل وكانت تحبس فيه الإبل ولذلك سمي *بالمربد*.... ثمّ ازدهر مربد البصرة ليصبح أيضاً مهرجاناً للشعر يتبارى فيه الشعراء بقصائدهم.. ومازالت فعاليات مهرجان *المربد* الشعري في مدينة البصرة، حتّى الآن رغم بعض الانقطاعات بسبب ظروف قاهرة أحياناً.. كالحروب والصراعات..

- قل لي ياجاحظ العينين، أتحفظ قصصاً عن أمانة الكلاب ؟..

- بالطبع هناك الكثير من الحكايات حول الكلب الأمين.. الذي ينقذ صاحبه من الغرق، ومن الحرق، ومن الضياع، والسرقة، والقتل أحياناً..

- وعن الخيول الأصيلة، أتحفظ شيئاً ياجاحظ العينين؟

كان يكره هذا اللقب، الذي يبدو أنه يرضيهم: - «لابأس لن يغير هذا اللقب في شخصيتي شيئاً، أنا جاحظ العينين فعلاً»

- لم تقل لي شيئاً عن الخيول الأصيلة ؟..

- إنه بحث طويل، خيول العرب هي أكثر الخيول أصالة، وأشدها التصاقاً بصاحبها.. سأحكي لكم هذه الحكاية..

وعاد إلى أبي جعفر العنبري يسأله :

- قل لي ياأبا جعفر أيمكن أن أحصل من البدو على أخبار (طسم وجديس)؟

- ولماذا ياعمرو تريد الحصول على هذه الأخبار؟

- اندثرت أخبارهم منذ زمن بعيد، وأريد أن أجمع مايصلني من حكايات ونوادر وأخبار مازال الناس يتناقلونها عنهم..

- أعتقد أن هذا الأمر ليس سهلاً.. ولكن لابأس من التجربة..

وهكذا التحق الجاحظ بإحدى القوافل الضخمة وجاءه من يدعوه إلى خيمة الأمير عبد الملك بن صالح الذي كان في جولة على مضارب البدو.. كانت الحرارة عالية والرطوبة تكاد تخنق الأنفاس وهم يقتربون من ساحل البحر، فشجَّعه أبو جعفر وقال له:

- يبدو أن الأمير سمع عن حكاياتك ونوادرك.. اسمع ياعمرو، الأمير عبد الملك يحب الشعر وستجد في خيمته عدداً من الشعراء..

- وأنا أحفظ كثيراً من الشعر.. لماذا لم يستدعك للحضور إليه مادمت من أهم رواة الشعر في البصرة؟!

- أنا أعرفه جيداً، ولكني تجنبت الاقتراب منه حتى لايطلب مني البقاء معه في هذه الرحلة الطويلة.

- وماذا لو بقيت معه؟ ما المانع ؟

- أريد أن أنفصل عنكم في (البحرين) لبعض الوقت وأعود إلى البصرة.. لدي أعمال مهمَّة، ثم إنها فرصة لك لتقضي الوقت مع رجل مهمّ مثل الأمير عبد الملك..

- تريد العودة إلى البصرة ؟

- نعم.. كما قلت لك تنتظرني أعمال مهمَّة..

- أفكّر في إرسال بعض النقود لأمي ورسائل لأختي ولأصدقائي و..

- كما تشاء، واطمئن سأسلم النقود والرسائل باليد، مهما كانت عديدة..

ودخل الفتى خيمة الأمير الذي بالغ بالترحيب به

- إنه شرف كبير لي أيها الأمير..

- حكى لي ابني عبد الرحمن الكثير عنك وعن حفظك للشعر والأخبار والنوادر.. تقدَّم ياعبد الرحمن وسلّم على ضيفنا..

- أهلاً بك ياعمرو..

- سيأتي إلينا بعد قليل عدد من الشعراء والرواة، أريدك أن تجلس معهم، وتسمعني آراءك بأشعارهم وقصائدهم..

- لا بأس.. أنا جاهز لمثل هذه المجالس..

وتابع عمرو جولته على مضارب البدو:

- قل لي ياأخا العرب..

- ماذا تريد أيها الشاب؟

- أليس من أحد هنا يعرف شيئاً عن أخبار عرب (جديس) و(طسم)؟

- إن أردت معرفة الأخبار، عليك بالشيخ ابن عامر، إنه يحفظ الكثير..

- وأين أجد الشيخ ابن عامر هذا ؟..

- لن تجده سوى في المسجد الكائن أمام الصحراء.. إنه يقضي فيه جُلَّ وقته.. ربما كان الأنسب لك لأن تسأل عنه في موعد صلاة الصبح..

- سأحاول بإذن الله.

والتقى الجاحظ بالشيخ :

- وماذا تريد أن تسألني أيها الفتى؟

- عن أخبار من سبق، فأنا أجمع الأخبار والحكايات وأدوّنها.. وقد تشوّقت لمعرفة أخبار العرب البائدة..

- تبدو صغير السن، ورغم شكلك الغريب، فأنا مستعد للإجابة عن أسئلتك..

- شكراً لك ياشيخنا.. أريد أن أسأل عن أخبار الأقدمين الذين اندثروا، مثل (طسم) و(جديس).. أتعرف شيئاً عنهم ياشيخنا ؟

- طسم وجديس..؟ كنت أسمع بذكرهم في فتوتي، ولكني لا أذكر شيئاً.. لاتؤاخذني أيها الشاب، هذه أول مرة أسأل عنهم..

- كيف تنتهي ذكراهم هكذا؟ مع أنهم خلفو الكثير من المعارف لمن بعدهم..

- إنه الزمن يابني، الزمن الذي يمحو ذكرى الناس، أو يخلّدهم.. ومن يمحو ذكراه لاأثر له، حتى ولو كان ملكاً عظيماً.. أما من يخلّدهم الزمن فمنهم القادة العظام بأخلاقهم، ومنهم الجلادون والقتلة..

- سعدت بمعرفتك ياشيخنا.. وأرجو أن لاتمانع فيما لو زرتك مرّة أخرى..

- على الرحب والسعة بك في أي وقت..

والتقى الجاحظ بالأمير عبد الملك من جديد:

- تبدو منزعجاً ياعمرو؟

- نعم أيها الأمير.. قطعت المسافات الطويلة وأنا أمنّي نفسي بتدوين أخبار عرب طسم وجديس.. ولكن للأسف لم يبق أثر لهم سوى الاسم فقط..

- أتعلم ياعمرو، التجوّل في بلاد الله الواسعة يكسب الثقافة والخبرة ولم تخسر بمجيئك إلى هنا، بل كسبت،

تعرّفت إلى أصدقاء جدد، وإلى عادات وتقاليد، وقابلت أقواماً وحكاماً وأمراء..

- معك حق أيها الأمير، لم تكن رحلتي دون جدوى.. على الأقل تعرفت عليك أيها الأمير.. وعلى أصدقاء آخرين أعطوني الكثير من تجربتهم وخبرتهم في الحياة لأدونها..

- إنك شاب ظريف ياعمرو، كنت متفوقاً أمس وأنت تنتقد الشعراء، وتصلح لهم قوافيهم.. وتروي الأخبار والنوادر الطريفة، كنت مدهشاً..

- شكراً لك أيها الأمير..

- مارأيك لو حضرت مجلسي اليوم أيضاً ؟

- لابأس، ولكن في الغد سأحزم أغراضي وحاجياتي وأعود إلى البصرة..

- لن أوافق على ذهابك، مازال الوقت مبكّراً للعودة إلى البصرة.

نظر إليه بهدوء وقال بثقة:

- اسمع ياعمرو، ستكون ضيفاً علي طوال رحلتك، وسأخصص لك راتباً يكفيك، أنت شاب نابغة، لن أتركك للظروف القاسية هكذا..

- جزيل الامتنان لك أيها الأمير..

- منذ الصباح ستنطلق وعبد الرحمن إلى الصيد ومعك (الغزالة) إنها فرس سريعة، جميلة، أقدمها لك..

- لي؟ شكراً لك أيها الأمير، لساني عاجز عن شكرك..

وانطلق للصيد مع ابن عبد الملك لأول مرة في حياته :

- إنها أرض مليئة بالظباء والأرانب..

- سنصطاد منها الكثير إذاً..

- انتبه جهّز قوسك، وسدّدها صوب ذلك الظبي المختال بقرونه..

-٦-

من باب العلم الواسع

واستمر الجاحظ في رحلته الطويلة تلك، وهو في ضيافة عبد الملك بن صالح، فزار مكّة والمسجد الحرام وقبر النبي صلى عليه وسلّم، كما زار الأمكنة التي حدثت فيها الغزوات والسرايا..

وجلس مع الشعراء والندماء، وجمع النوادر والحكايات والقصص عن المجانين والمغفلين والبخلاء، كما اهتم بعادات الحيوانات، وأصنافها وقصصها، وهكذا عاد إلى أمه في البصرة بعد عامين قضاهما في تلك الرحلة الطويلة..

- هذه غرفتك جاهزة، وقد غيّرت كل أثاثها، أريدك أن لاتفارقني بعد اليوم

- أمّاه، لم أعد صغيراً، أصبح لي أصدقاء من كبار القوم..

- الحمد لله، كل من أسأله عنك يخبرني بأنك رجل متميّز بين الناس وأنت لم تبلغ العشرين ولم يقصّر صديقك أبو عمران عن إرسال المال لي شهراً واحداً..

وزار صديقه موسى بن عمران في ذلك اليوم:

- اشتقت لقصصك ونوادرك، لابدَّ وأنك تحمل الكثير منها في جعبتك الآن بعد أن تجولت في نجد والحجاز وساحل الخليج..

- سنتحدث في ذلك فيما بعد ياموسى، ولكن قل لي ما الذي غيّر البصرة هكذا، أشعر أنها فقدت الكثير من علمائها وشعرائها ومؤدبيها..؟

- الخليفة هارون الرشيد فتح بلاطه للعلم والأدب، إنه يستقدم المتفوقين من كل صوب..

- لا أرى الأصمعي ولاسهل بن هارون ولا أبا عبيدة..

- رحلوا إلى بغداد إلى بلاط أمير المؤمنين هارون الرشيد.. وأصبحت الأشعار هنا تنتشر على كل لسان،

كأشعار الحسن بن هانئ (أبي نواس) مثلاً.. ستأتي اليوم إلى مجلسنا بعد العشاء، سأعرّفك على أصدقاء نابغين أيضاً.. أتذكر (إبراهيم بن سيّار) ياعمرو؟

- النظّام؟ الذي كان والده ينظم من الخرز عقوداً..؟

- نعم.. سيكون معنا اليوم، إنه في شوق للقائك..

تنهد موسى وتابع حديثه :

- كثر أصحاب المذاهب الدينية.. لدرجة مخيفة.. ياعمرو..

- معك حق هذا يشكل خطراً على وحدة الأمة..

- وأنا أتصدّى كثيراً لبعض أصحاب هذه المذاهب، وأرفض خلافاتهم..

واستمرت الجلسة ثم تململ الجاحظ يريد الذهاب :

- تأخرنا في السهر اليوم، يجب أن أعود..

- مابك؟ لماذا أنت متعجّل ؟

- واعدت أحد الورّاقين أن آتي إليه بعد العشاء، وقد تأخرت..

- لماذا.؟ ألا تكتب مخطوطاتك في منزلك ؟

- ليس من أجل هذه المسألة، أنا ذاهب إلى دكان الورَّاق لأطَّلع على بعض المخطوطات الجديدة..

- أتريدني أن أرافقك ؟

- لابأس.. لامانع عندي..

وانشغل الجاحظ بمخطوطات الورّاق يقرؤها وينقل منها بعض المسائل حتى تعب صديقه موسى فسأله :

- ألم تتعب بعد ياعمرو؟ ياإلهي دخان المصباح حوّل الدكان إلى مكان خانق..

- سأسهر حتى الفجر، مازالت أمامي بضع وريقات أريد دراستها..

وفكر الجاحظ بعد عودته من دكان الورّاق :

«إلى متى سأظل هكذا دون دخل حقيقي من تعبي وكتابتي.. لماذا أترك موسى ينفق عليَّ من ماله، ولا أعمل شيئاً لأحصل على المال من كتابتي وأخباري ؟..»

وجاء إبراهيم بن سيّار يودِّع الجاحظ:

- تريد الرحيل إلى بغداد؟..

- نعم.. لقد أرسل (سهل بن هارون) في طلبي.. سيقدمني إلى أمير المؤمنين..

- أتمنى لك التوفيق يا إبراهيم..

- شكراً لك، وإن كنت أتمنى لو ترافقني..

- مازلت صغيراً على الذهاب معك يا إبراهيم..

- قد تكون صغير السن، ولكنك كبير العقل ياعمرو، لماذا تقول هذا ؟..

- اذهب في رحلتك تكلؤك رعاية الله..

- سنظل على اتصال، قد أنجح في استقدامك إلى بغداد..

- إلى بغداد؟ لست أعتقد أنني سأصل إلى تلك المرحلة..

وهكذا غادر (النظّام) البصرة في طريقه إلى بغداد، وظلّ (عمرو بن بحر) يشعر بالوحشة رغم محاولات صديقه (أبي عمران) إعادة البهجة إلى قلبه..

ورغم أن علاقته بالأمير عبد الرحمن بن عبد الملك قد توطَّدت، فما زال يحسّ أنه يعيش عالة على الآخرين، ورغم ذلك استمرَّ في استئجار دكاكين الورّاقين، يطَّلع فيها على المخطوطات والكتب الجديدة، ويسجّل ملاحظاته وهوامشه.. وكانت شديدة الأهميّة..

«للعقرب منافع، فإذا شقّ بطنه ثم شدّ على موضع اللسعة، حينئذ تنفع منفعة بيّنة.. ورماد العقرب المحروق، يسقى منه مقدار نصف دانق من به حصاة، فيفتت الحصاة من غير أن يضر بشيء من الأعضاء الصحيحة، وتغطس العقرب في الدهن، حتى تموت ثم يؤخذ من هذا الدهن فيفرق الأورام الغلاظ وبين العقارب والخنافس مودّة دون مسالمة، كما بين الحيّات والوزع فإنها تتساقى السم وتتزاق».

واستمر الجاحظ في كتاباته، يتابعها في الليل ويتجوّل في النهار، ويلتقي بأصحابه وأصدقائه في مرحلة فتوته التي أثّرت على حياته المديدة كثيراً..

كان عالماً عبقرياً تفتّحت موهبته منذ طفولته.. وحاول أن ينظّم وقته بين حضور مجالس صديقه موسى بن عمران والأمير عبد الملك بن صالح، ودكاكين الوراقين الذين كان يستأجر منهم الدكان ليبقى فيه طيلة الليل يقرأ ويكتب، ويدوّن الملاحظات على ضوء الفوانيس والدخان يعبق في المكان..

بعد ذهاب صديقه (إبراهيم بن سيّار) الملقّب بالنظّام إلى بغداد، شعر الجاحظ أنه عالة على صديقيه (أبي عمران) و(عبد الملك بن صالح) فاعتزل قليلاً، وهو يفكّر بالخروج من هذه الأزمة، ليصبح ذا عمل مهم، يدرُّ عليه دخلاً ثابتاً.. ويريحه ذلك من أخذ المكافآت من أبي عمران وعبد الملك.. ولكن شيئاً حصل له بعد ذلك، ولم يكن يتجاوز العشرين من عمره..

- هدّئ من روعك ياولدي، الأعمار بيد الله..

- لا تعرفين ياأمي ماكان (أبو عمران) بالنسبة لي، كان الأخ والصديق والمعلّم، والكريم الشهم الذي ماتركنا لحظة دون مساعدة..

- لا بأس يا ولدي.. رحمه الله، لا نملك ردّ قضاء الله..

وبعث الأمير عبد الملك يريد عمرو:

- يريدني أنا؟ الأمير عبد الملك بعيد جدّاً عن هنا..

- نعم ياسيدي، وأمرني ألاّ أعود إلا وأنت بصحبتي.. معي رجال ينتظروننا في الخارج..

- طيب، سأجهّز نفسي..

قالت أمه:

- إنه حزين على صديقه المتوفّى، كان يبكي قبل لحظات.. كيف سيغادرنا هكذا سريعاً؟

- أعتقد أن الأمير أرسل إليه، يريده أن يعمل عنده.

- الحمد لله.. بارك الله فيه..

-٧-

رحلات الكشف المعرفي

ها هي بغداد حاضرة الخلافة العباسية أمام الجاحظ بازدحام طرقها وأسواقها وقصورها الشامخة..

ها هو قصر الخلد الذي يعيش فيه الخليفة (هارون الرشيد) وهذه القصور المحيطة به للبرامكة.. قال الجاحظ لمرافقه واسمه قمامة :

- أنا متعب، أين سننام يا قمامة ؟

- سنصل قريباً إلى أحد المنازل المخصصة لقوافل الأمير، سيعتنون بنا جيداً لاتقلق.. وفي الصباح نتابع طريقنا، ألم تكتف من بغداد بعد ؟

- نعم.. وإن كنت أتمنى أن أعيش فيها..

- ربما أتى ذلك الوقت قريباً ياسيدي..

كان الجاحظ مستمتعاً برحلته وهو يجول بين الآثار بعد أن تجاوز بغداد في طريقه إلى الشمال:

- إنها رحلة عجيبة، يجب أن أتابع تسجيل مارأاه، آه، غريب أن تتبعث الينابيع من باطن الأرض وسط الثلوج في القمم العالية.. آه ما أكثر عجائب هذه الآثار.. إنها آثار الحضارات السابقة في هذه المنطقة، من الآشوريين والبابليين والآكاديين والسومريين..

- انظر يا سيدي إلى هذه المعادن والأحجار الكريمة في الصخر..

- إنها آثار عظيمة ياقمامة..

- أراك تكتب ياسيدي؟ ألم تتعب من الكتابة؟

- لا يا قمامة، يجب أن أسجّل كل شيء.. أخبرني ما اسم البلدة التي سنصلها الآن؟

- بدأنا نقترب من أنطاكية..

- يجب أن أكتب قصيدة أمدح فيها الأمير عبد الملك سأفاجئه بأني شاعر أيضاً..

- ألن تتناول عشاءك ياسيدي..؟

- لا.. سأتفرّغ بعض الوقت لكتابة الشعر..

«يجب أن أكتب قصيدة تحوز إعجاب الجميع.. هه.. ستكون أول تجربة لي في كتابة الشعر ولكني لست مطمئناً.. آه.. لماذا عدم الاطمئنان هذا؟ أمعقول ألاَّ تعجب قصيدتي الأمير عبد الملك؟»

واستقبله عبد الملك بحفاوة:

- أهلاً بك ياعمرو، اشتقنا لسماع أخبارك وحكاياتك..

- شكراً لك أيها الأمير..

- هل أنت مرتاح في مكان إقامتك..

- نعم يا سيدي.. أنا شديد الامتنان لسموّكم.. وتعبيراً عن امتناني هذا سأقرأ عليكم قصيدة نظمتها بنفسي في مدحكم أيها الأمير الفاضل..

صاح الأمير مبتهجاً:

- اسمعوا يا جماعة.. عمرو بن بحر الشاب الموهوب المتفوق سيسمعنا قصيدة نظمها مؤخراً.. هذا

سيضيف إلى قائمة إبداعاتك إبداعاً جديداً هو قرض الشعر..

- أرجو ألاَّ أخيب ظنكم بي ياسيدي..

- لاتقلق من هذه الناحية.. تفضل، لتسمعنا قصيدتك..

وألقى قصيدته وسط صمت الجميع وهذا ما أزعجه:

- لقد صمت الجميع بعد أن سمعوا قصيدتي، لم تلق استحساناً من أحد..

قطع الأمير الصمت:

- اسمعنا بعض حكاياتك ونوادرك..

- كما تشاء يامولاي..

همس له عبد الرحمن ابن الأمير:

- لاتحزن ياعمرو، ربما لم تكن بارعاً في نظم الشعر، ولكنك بارع في رواية النوادر والقصص، والحديث عن مشاهداتك وأخبار الناس..

- يبدو على الحاضرين الانزعاج..

- إنه ليس انزعاجاً منك، ربما عدم فهم..

- بل قل خيبة أمل، رأيت خيبة الأمل هذه في عيني والدك يا عبد الرحمن..

- تعلم كم يحبك ويحترمك..

- أعلم.. شكراً لك أيها الأمير..

شجعه الأمير على رواية حكاياته:

- ما الذي تنتظره يا عمرو؟ أسمعنا نوادرك وطرائفك، كلنا في شوق لسماع حديثك..

* * *

خرج الأمير بعد أيام بجيشه لقتال الروم.. ووضع عبد الرحمن ابنه نائباً له

- نصره الله على أعدائه، أي إنك ستنشغل عنا أيها الأمير، ستلاحق مشاكل الناس وأعمالهم وقضاياهم..

- لن يعطلني ذلك عن الالتفات إليك والاهتمام بك، أنت أعزّ أصدقائي..

ولكن عبد الرحمن لم يستطع أن يبرَّ بوعده، فانشغل بمشاكل الإمارة لبعض الوقت، ولكنه بعد مدّة أخذ يدعو الجاحظ يومياً لحضور حفلات الطرب والموسيقا في المساء..

وهكذا ظلّ الجاحظ في قصر والي أنطاكية، يعبّ من تجربته في الحياة ويضيفها في كتب احتفظ بها.. والتقى يوماً بإحدى الجواري، كانت جارية جميلة تتقن السماع وتناقش في الثقافة:

- تبدو ظريفاً يارجل..

- وأنت جميلة، سبحان الخالق..

- تعرف الكثير من الحكايات والقصص.. من أين تعلّمتها؟

- من الناس ومن رحلاتي المتتالية..

فكر قلقاً: «يبدو أنني غريق في عشق هذه الفتاة.. ماذا أفعل؟»

- مابك؟ تتغيّر من حزن لفرح.. ثم يعود إليك الحزن من جديد..

- الحياة قاسية ياجميلتي..

- لا تأخذها بجدّية هكذا، ستتعب..

- وأنت حكيمة أيضاً، إضافة لجمالك..

لحظه عبد الرحمن يبادل الفتاة الحديث فابتسم وانسحبت الفتاة محرجة :

- لماذا أحرجتها أيها الأمير؟

- لن تصاب بالحرج، لاتقلق ثم إنها من الفتيات العاملات في القصر.. هه.. تبدو معجباً بها..

- آه.. نعم، إنها رائعة الجمال..

- إذاً هذا سهل.. ستتزوجها..

- أتزوجها، أنا ؟

- نعم.. مادمت معجباً بها هكذا ؟

- قد لاتقبل بي؟ قبولها مهمٌّ جداً أيها الأمير..

- سنسألها.. فقط حاول أن تزيد علاقتك معها ترابطاً.. سأسألها بعد أيام عن رأيها بزواجها منك..

فكر وهو لايكاد يصدق: «يبدو الأمر أشبه بحلم جميل»..

وهكذا تزوج الجاحظ من الفتاة، التي رفضته في البداية لقباحة شكله، ولكنها قبلت به فيما بعد، وقد أمتعها بحديثه وظرفه..

ووصله خبر وفاة والدته فترك أنطاكية وعاد إلى البصرة وقد ترك زوجته في عهدة الأمير عبد الرحمن..

واستقبلته أخته في البصرة:

- لماذا لم تحضر زوجتك بصحبتك يا أخي..؟

- خفت عليها مصاعب الطريق وقطاع الطرق ياأختاه؟

- ليست أول امرأة تسافر..

وبعد أن أقام في البصرة عدة أسابيع فوجئ بمن يطرق عليه الباب:

- السلام عليكم يا أبا بحر..

كان الأمير عبد الرحمن الذي حضر إلى البصرة..

- شرفتني بزيارتك أيها الأمير.. إنها مفاجأة فعلاً..

- زوجتك معي وهي حامل، أحضرتها إليك، هي بحاجة لعناية..

صرخ مبتهجاً:

- معقول ياإلهي.. أختاه، حضر الأمير عبد الرحمن، أرجو أن تقومي بواجب الضيافة تجاهه..

-٨-

الشهرة والوجع

ولدت زوجته صبياً مالبث أن توفي بعد أشهر، وضاقت الدنيا في عينيها، فهجرت الجاحظ وعادت إلى قصر الأمير عبد الملك بن صالح..

وظل عمرو في البصرة يتسكع، وسمع بأذنه الكثير من التعليقات عن هروب زوجته الجميلة من بشاعته، ومن سوء حظها بقبولها الزواج منه..

ولكن الجاحظ استطاع بعد أيام أن ينتصر على ظروفه وأخذ يقدِّم المخطوطات إلى الورَّاقين بعد أن يتلاعب بأوراقها لإيهامهم أنها لابن المقفع أو سهل بن هارون.. ولم يكتشف الورَّاقون الأمر في البداية، ولكن المؤلفين أنفسهم احتجوا على هذا التزوير.. ثم مالبثوا أن أعجبوا بهذا الكاتب البارع الذي نجح في تقليدهم..

وأقبل الناس على كتبه يقرؤونها بشغف، وتوافد السياسيون والأمراء إلى البصرة لاستمالة قلمه، وكان حذراً من التورط في السياسة، ورغم ذلك، فقد انتقد بشكل عنيف دخول العنصر غير العربي في الخلافة العباسية، وحكى عن خلافات المذاهب..

ومالبث المأمون حين استلم الحكم بعد صراعه الدامي مع أخيه الأمين أن أرسل في طلب الجاحظ من البصرة، ولم يكمل الجاحظ الأربعين من عمره..

كان المأمون معــجباً بكتب الجاحظ ومقالاته التي تحكي عن الناس والمجتمعات وغرائب البشر.. ورتب المأمون له راتباً جيداً، وأرسله للعمل في ديوان القاضي (ابن داود) ولكن الفتن ازدادت فترك الجاحظ بغداد وعاد إلى البصرة.. ولكنه بعد عامين من وجوده في البصرة أرسل الخليفة المأمون في طلبه، وحين حضر إليه أوكل إليه وظيفة لم يكن يحلم بها:

- عيَّنّاك رئيساً لديوان الرسائل يا أبا بحر ؟

- شكراً لك يامولاي.. إنها مسؤولية جسيمة..

- وأنت أهل بها، ستخلف (سهل بن هارون) بهذا.. هيا يا أبا بحر حدِّثنا بآخر طرائفك..

- آه يامولاي.. ماأذلتني في حياتي إلا امرأتان: الأولى قادتني من يدي في السوق إلى نقَّاش وأنا مستسلم بسهولة ليدها الطرية ورائحة عطرها النفاذة، قالت للنقّاش (مثل هذا).. وبعد ذهابها سألته عما تعني بكلمتها (مثل هذا) فقال: أمرتني أن أنقش صورة شيطان لتخيف به الأولاد فقلت لها: لاأعرف شكل الشيطان، فذهبت وعادت بك وقالت: مثل هذا..

ضحك المأمون :

- ما أطرفك يا أبا بحر!! هه.. والمرأة الثانية؟

- كنا في سفر، وأنا قصير القامة يامولاي كما تعلم.. أردت السخرية من امرأة طويلة جداً بالنسبة لي، ونحن نتناول الطعام فقلت لها:- اهبطي لتأكلي.. فأجابتني ساخرة:- بل اصعد أنت حتى ترى الدنيا.. وضحك الجميع وسخروا من قصر قامتي أيضاً..

- إنك رجل لمّاح يا أبا بحر..

ورغم الظروف السياسية المضطربة، عاش الجاحظ في بغداد يؤلف الكتب ويناظر الباحثين وطلاب العلم، ودبَّت الغيرة في قلبه.. من كثرة عدد مؤلفات بعض الكتاب أمثال: (سهل بن هارون) و(هشام بن محمد الكلبي)..

وفي بداية عقده السادس مات المأمون وخلفه المعتصم شقيق المأمون.. الذي أبقى على مكانة الجاحظ في بلاطه.. ولكنه استبدل وزيره (ابن داود).. (بابن الزيات) الذي كان متقلباً مزاجياً.. حاول الجاحظ إرضاء الأخير فأهداه كتاب (الحيوان) وظل يعيش في كنفه وهو يراه يبطش بخصومه دون رحمة.. وهو ينصحه ولايسمع النصيحة.. حتى توفي المعتصم وخلفه الواثق ولم يصل الجاحظ إلى السبعين من عمره..

وعاد الجاحظ إلى البصرة وقد ملك فيها ضيعة واسعة.. وعكف على تأليف الكتب فكتب: (البخلاء) وأهداه لابن الزيات في مدينة (سامراء) حيث يقيم الخليفة..

وحين وصل المدينة كان الواثق قد ودَّع الدنيا واستلم المتوكل الخلافة.. وأبقى (ابن الزيات) وزيراً.. وقد بدأ

يبطش بخصومه دون أن يستمع لنصائح الجاحظ.. حتى كانت تلك الليلة الحامية، وكان فيها ابن الزيّات يجلس مع الجاحظ، حين طرق الباب بشدة، قال الجاحظ:

- قلبي يحدّثني بأمر عصيب معقَّد أيها الوزير..

- ماذا تقول ؟

واندفع الجند إلى الداخل :

- اقبضوا عليهما..

وسيق ابن الزيّات والجاحظ إلى السجن.. كان الخليفة الجديد قد أعاد ابن داود للوزارة.. وحين عرف أن الجاحظ في السجن، أرسل من يحضره إليه معزَّزاً مكرَّماً:

- أنا آسف يا أبا بحر، يبدو أنَّ الأمر اختلط على الجند..

- شكراً لك ياسيدي لقد أنقذتني من أيديهم وقسوتهم..

- هيا ياصديقي اقرأ لي بعض ماكتبت..

وازدادت قسوة المرض على ابن داود..

- أقعدني الفالج يا أبا بحر!

- شفاك الله ياسيدي.. هل أقرأ عليك شيئاً من كتابي (نقض الأطباء) ؟

- سأكون مسروراً بسماع ذلك.. يبدو أنك تتألم من شيء يا أبا بحر..

- إنه النقرس اللعين، يزعجني أحياناً..

- كان يجب أن تخفف اللحوم من موائدك..

- صحوت على ذلك متأخراً، وقد انتشر النقرس اللعين في رجلي..

- هيا.. لتنسَ الألم.. اقرأ لنا شيئاً من (نقض الأطباء)..

وتوفي ابن داود، بعد مصرع المتوكل على يد حراسه الأتراك، وأصيب الجاحظ بالفالج.. وعاش (٩٥) سنة.. أما نهايته فكانت مأساة.. كان بين الكتب في مكتبته يكتب ويقرأ، حين احتاج لأحد المراجع فحاول أن يستند على الرف المجاور له وهو يزحف :

- يجب أن أصل إلى ذلك الكتاب.. أين ذلك الخادم اللعين؟

وحدث مالم يكن يتوقعه فلقد انهارت الكتب من الرفوف التي مالت بثقلها فوق الكهل المريض..

وهكذا لفظ الجاحظ أنفاسه بين الكتب، وخلَّف بعد رحيله (٣٥٠) كتاباً ورسالة في الجغرافيا والطبيعيات والرياضيات والبيئة والنبات والحيوان والفلسفة والاجتماع والأدب..

ولعل من أشهر كتبه (الحيوان) (البخلاء) (البيان والتبيين) و(المحاسن والأضداد)..

كان عبقرياً موسوعياً عاش حياة حافلة بالعمل.. مكابراً على شكله، مهتماً بأمور العقل التي سادت ذلك الزمن..

n

الصفحة

١- صنّاع الحضارة العربيّة. ٥

٢- الجاحظ وعلماء التصنيف الحيواني ١٣

٣- طفل دقيق الملاحظة ١٨

٤- الصبي الباحث ٢٩

٥- البحث في أسرار الصحراء ٣٦

٦- من باب العلم الواسع ٤٥

٧- رحلات الكشف المعرفي ٥٣

٨- الشهرة والوجع ٦٢

قائمة بسلسلة الأعلام للناشئة

الرقم	اسم الكتاب	المؤلف
١	محمود درويش	عادل محمود
٢	الأمير السعيد (محمد عبد الكريم)	محمد بري العواني
٣	اسحق الموصلي	خليل البيطار
٤	الملك الظاهر بيبرس	د. عماد الدين غانم
٥	رحلة ابن جبير	د. نوفل نيوف
٦	عمر الخيام	هنادي زرقة
٧	عباس ابن فرناس	محمد رضوان الداية
٨	ألبرت آينشتاين	حسن بلال
٩	موتسارت	محمد حنانا
١٠	أبو حيان التوحيدي	ثناء عباس
١١	ليلى الأخيلية	د. سمر ديوب
١٢	مي زيادة	خليل البيطار
١٣	المسعودي	د. نوفل نيوف
١٤	السيد والسيدة كوري	ترجمة: فاتن مرتضى
١٥	لوركا	هنادي زرقة
١٦	كريستوفر كولومبوس	فادي غانم

١٧	ابن طفيل الأندلسي	محمد رضوان الداية
١٨	بدوي الجبل	عزيز نصار
١٩	ابن حزم القرطبي	محمد رضوان الداية
٢٠	أبو فراس الحمداني	د. شوقي المعري
٢١	يوسف العظمة	بسام جميدة
٢٢	داوود قسطنطين الخوري	محمد بري العواني
٢٣	إبراهيم هنانو	ماهر الأشرم
٢٤	صالح العلي	عزيز نصار
٢٥	سلمى الحفّار الكزبري الأديبة المتفوّقة	عيسى فتوح
٢٦	أعلام في ريادة الفضاء	محمد حسام الشالاتي

الطبعة الأولى / ٢٠١٤م
عدد الطبع ٢٠٠٠ نسخة

للجاحظ تصانيف كثيرة، منها كتاب (الحيوان) الذي يتألف من أربعة مجلّدات..

يبحث كتاب الحيوان في غرائز وخصائص الحيوانات وكيفية التعامل معها، وكيف تعامل بعضها البعض. وهو موسوعة علمية شاملة غزيرة المعلومات..

يستعرض الجاحظ أنواع الحيوانات وخصائصها وسلوكها..وقد أورد معلوماته من واقع الخبرة والتجربة والمشاهدة، مع تحليل علمي..

الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة
www.syrbook.gov.sy
E-mail: syrbook.dg@gmail.com
هاتف: ٣٣٢٩٨١٥ - ٣٣٢٩٨١٦
مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٤م

سعر النسخة ٥٠ ل.س أو ما يعادلها